

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطريق الوحيد والاستراتيجية الرئيسة
في النظام التربوي الديني، (المحاضرة ١٧)

علي رضا بناهيان



PANAHIAN.NET

الزمان: شهر رمضان المبارك عام ١٤٣٤هـ
المكان: مسجد الإمام الصادق (ع) في مدينة طهران
الموضوع: الطريق الوحيد والاستراتيجية الرئيسة
في النظام التربوي الديني، (المحاضرة ١٧)

إليك ملخص الجلسة السابعة عشر من سلسلة محاضرات سماحة الشيخ بناهيان في موضوع «الطريق الوحيد والاستراتيجية الرئيسة في النظام التربوي الديني» حيث ألقاها في ليالي شهر رمضان المبارك عام ١٤٣٤هـ. في مسجد الإمام الصادق (ع) في مدينة طهران.

نحن مازلنا مضطرين إلى مخالفة بعض أميالنا

لقد انتهى بحثنا في الجلسات السابقة إلى أننا مضطرون إلى مخالفة بعض أهوائنا، وأن هذا الاضطرار هو بسبب تركيبة وجود الإنسان وتركيبه الحياة في هذه الدنيا. وقد ذكر في ما يرتبط بتركيبه وجود الإنسان أن الطريق الوحيد لنماء قوى الإنسان الروحية وحتّى الجسميّة هو مخالفة بعض الأهواء والرغائب. و أمّا سبب ما تقتضيه تركيبة الحياة من مخالفة الأهواء فهي عوامل شتّى من قبيل استحالة وصول الإنسان إلى جميع آماله، وأن لابدّ للإنسان من هرم ومشيب إذا عمّر في الدنيا، وغيرها من العوامل التي تفرض على الإنسان أن يجاهد نفسه ويخالف بعض أهوائه.

يشكّل الإيمان الحافز اللازم لجهاد النفس / التقوى هي برنامج لجهاد النفس

الحافز اللازم لجهاد النفس هو الإيمان، وبرنامج التقوى. إن دور الإيمان في هذه المعمعة هو أن يحدّد لك الهدف لتقدر على اجتياز هذه الساحة الخطرة بحافز قويّ وشوق بالغ. يعدك الإيمان بوجود عالم آخر أبدي خالد بعد هذه الدنيا، ويشرح لك سبب الآلام والمحن الموجودة في هذه الدنيا لكي تعرف أنها كانت لصالحك، ولتعرف أن الذي جعلك في خضمّ هذه المحن والصعاب لم يتركك سدى بلا برنامج و خارطة الطريق، فثق به واركز إليه. بعد مرحلة الإيمان، يأتي دور اجتياز ساحة الألغام عبر برنامج التقوى. فالإجابة عن كيفية جهاد النفس وما هي الرغبات التي يجب مخالفتها، وأسلوب طيّ هذا الطريق هي تشكّل نقطة الانطلاق في حركة الإنسان الدينيّة.

العلاقة بين التقوى والعبودية

بعد أن اقتنعنا بضرورة الكف عن بعض رغباتنا، يطرح هذا السؤال نفسه، وهو: عن أي رغباتنا يجب أن نكف؟ فلو سألنا الله سبحانه بهذا السؤال لأجابنا: عليكم أن تغضوا عن رغباتكم حتى لا يبقى أثر من «الأنا» في داخلكم. لذلك إن خالفت بعض أهوائك ولكنك بقيت محافظا على «أنانيتك» فقد نقضت الغرض ولا فائدة في مثل هذا الجهاد إلا في الدنيا. إنك إن قمت بتصميم هذا البرنامج بنفسك، ففي الواقع قد أبقيت «الأنا» على حالها، أو لعلك كبرتها إذ قد أعددت البرنامج بها وقد أضعفها في كميّة مخالفة الهوى. نحن إذا برمجنا بأنفسنا لجهاد النفس، نتنفخ أنانيتنا، فلا يبقى بدّ سوى أن يرمج الله لنا، وقد تصدّى سبحانه لهذا الأمر عبر أوامره ونواهيه وحلاله وحرامه وواجباته وعباداته. لقد أعطانا الله برنامجا أدار به عمليّة جهاد النفس وكأنه يقول: «إذا أردت أن أدير حياتك وجهادك فلا بدّ لك أن تكون لي عبدا ذليلا». والعبد لا يملك شيئا لنفسه. إن ما أراد الله منّا هو أن نترك اللذات والرغبات ولا نزال كذلك إلى أن لا يبقى شيء من أنانيتنا وملتدّ بعد ذلك بالعلاقة مع الله نفسه، وهذا هو معنى العبوديّة. ثم ليس هناك شراكة بيننا وبين الله بحيث يأمر الله تارة ونرتأي نحن تارة أخرى. وكلّما أخفقنا في الطريق يجب أن نتوب وسوف يمهّلنا ربنا، فإن الله أرحم الراحمين وليس بشديد على المؤمنين. ولكن بعد ما أصبحنا عبادا لله، فكّلما حدثت منّا مخالفة للأوامر الإلهيّة يجب أن نستغفر ونعترف بالذنب.

التقوى هو البرنامج الوحيد الذي يضمن القضاء على أنانيتك

أنت بحاجة إلى برنامج يعينك على إزالة أنانيتك، لتصبح بعد ذلك عبدا ذليلا لله وتحظى بلدّة العبوديّة. ومن لوازم القضاء على هذه «الأنا»، هو العمل ببرنامج لا دور لك فيه. ولذلك عندما كان يُسأل الشيخ بهجت (ره) عن برنامج للسير والسلوك أو يسأل عن كتاب مفيد في هذا المجال، كان يقول: «حسبكم هذه الرسالة العمليّة». يعني برنامج طي هذا الطريق والسير والسلوك هو العمل بهذه الرسائل العمليّة. ولعلمكم كان المجاهدون في أيام الدفاع المقدّس يعشقون الرسائل العمليّة،

إذ كانوا قد بلغوا درجة الاستعداد للتضحية، فأيقض الله في قلوبهم شوق عبادته فأصبحوا يودون أن يسمعو أوامر الله ليمثلوها، فكانت الرسائل العملية دواء قلوبهم. حتى أن بعض المجاهدين كانوا قد حفظوا رسالة الإمام الخميني(ره) من قبيل «الشهيد أحمد نيكجو» الذي استشهد في عمليات كربلاء خمسة، فقد نقل عنه أنه كان قد حفظ رسالة الإمام.

إن برنامج جهاد النفس هذا، يرقينا إلى درجة العبودية

إذا أردنا عملية جهاد النفس بأنفسنا، فلا فائدة فيها ولا تزال تسمى «عبادة النفس» لا «عبادة الله»، ولا نفرق حينئذ عن أولئك الذين يتحملون الكبد والعناء ولكنهم لا يتطورون. فإنَّ تحمل المعاناة أحد من الناس ولم يتنور قلبه فليعرف أن قد عانى وكابد بغير صواب، يعني أنه جاهد نفسه وعانى ما عانى ولكنّه لم يسيطر على هوى نفسه بعد. مضافا إلى أن المعاناة أمر لا بد منه في هذه الدنيا، فإن لم يعان الإنسان في سبيل الله، فسوف يعاني لا محالة في سبيل نفسه. إن جهاد النفس يصيرنا عبادا لله، إذ أن العبد الحقيقي، هو من كان على استعداد من امتثال أمر مولاه والتحرك ضمن برنامج مولاه، كالعبيد حين يمثلون أوامر أسيادهم. إن علاقتنا مع الله تختلف كثيرا عن علاقتنا مع شرطي المرور. إذ تهدف أوامر شرطي المرور إلى تنظيم السياقة والمرور في المدينة على أساس قوانين المرور، ولا دخل له بحديثنا داخل السيارة مثلا. ولكن علاقتنا مع رب العالمين ليست هكذا. إنه يصدر مجموعة من الأوامر، ثم ينظر إلينا فردا فردا ليري هل بقى شيء من أنانيتنا أم لا، حتى إذا وجد لها أثرا يقضي عليها عبر الامتحانات ومحن الحياة. طبعاً يفعل الله ذلك بمنتهى الرحمة والصبر والصفح، فإنه يرضى بالقليل من أعمالنا ويصفح عن كثير. فلا بد أن نرى جميع صفات الله ولا نؤكّد على جانب منها فقط. فإنّ الله يحاول أن يقضي على هوى نفسنا في هذه الدنيا ولكن بمنتهى الرأفة.

التقوى هي جهاد النفس ولكن بشرطين...

يجب علينا أن ندع بعض اللذات جانباً في سبيل أن نحظى بلذة لقاء الله ونذوق طعم هذا اللقاء. ينبغي لنا بحكم العقل أن نتغاضى عن بعض اللذات طمعا باللذات الأفضل. في مثل هذه الليالي يجب أن نتوب من ذنب غفلتنا عن أعظم لذة في العالم. فقد جعل الله شهر رمضان في سبيل أن نشغل به. فلا نجد بداً سوى أن نسلّم أنفسنا إلى الله ونقول له: ربنا نظّم حياتنا بنفسك. فيقول الله بلسان حاله: «نعم لا بدّ من ذلك! وإلى من أكلك؟ فيألي أي أحد أكلك صرت عبده ولن تصل إليّ بعد. بينما يجب أن تكون عبدي وأن تفني نفسك في سبيلي، ويجب أن تفقد نفسك لتنال لذة لقاءي. إذن فيجب أن أديرك بنفسك فأسمّيك عبداً. فبعدما قبلت أن تكون لي عبداً يجب عليك أن تمتثل أوامري. وليكن شأنك الوحيد هو اتباع أوامري وأحكامي بلا فرق بين التقديرية منها وبين التكميلية». بعدما قبلنا أصل العناء والكبد، لا بدّ أن نلتفت إلى «البرنامج» ونسعى للتخلّي بالرضا بالمصاعب في هذا الطريق. عندما يعطينا الله سبحانه وتعالى برنامجاً في جهاد النفس، لا يستخدم عبارة جهاد النفس، بل يتحدث عن «التقوى». التقوى هي ليست جهاداً للنفس وحسب، بل هي جهاد للنفس مع خصيصتين: ١- تشتمل على صبغة إلهية فإنك وعبر لزوم التقوى لا تجاهد نفسك في سبيل الدنيا فقط، بل تجاهدها لتنال لقاء الله سبحانه. إذن التقوى هي جهاد النفس بعينه، ولكن في سبيل الله. ٢- التقوى هي جهاد النفس ولكن عبر البرنامج الإلهي.

لقد جعل الله عقبة في طريق عبادته

إذا استطاع الإنسان أن يدع رغباته امتثالاً لأوامر الله وفي سبيل أن ينال لقاء الله ويحظى بلذة قربته، وراح يطبّق البرنامج الإلهي بحذافيره حتى صار عبداً مطيعاً، لا يدلّ ذلك على زوال أنانيّته، بل لا تزال نفسه قادرة على خداعه. يعني حتى لو امتثلنا جميع أوامر الله سبحانه، قد تكون «نفس» الإنسان باقية على قوّتها. إلهنا! لقد سلّمنا لك أنفسنا ورضينا بأن تكون أنت صاحب القرار في التكليف والتقدير ونحن راضون بذلك وقد أصبحنا عباداً لك، فأى مرض يبقى بعد هذا؟ هنا يجيبك الله قائلاً: «يبدو أنك شعرت بالقرب مني ولعلك لم تشعر بالبون الشاسع بيني وبينك وهذا ما يدلّ على بقاء أنانيّتك بعد».

ففي سبيل فرز أولي النفوس المتكبرة من غيرهم، قد جعل الله عقبة في طريق عبادته وهي قبول «الولاية». فإن كان لابد لنا من تلقّي أوامر الله، فالنبيّ هو الذي يبلغنا أمره. فمن أراد أن يستلم أوامر الله مباشرة بدون واسطة النبي، فهو متكبر. هذا هو قانون الله وهذه هي شريعته. فبمقتضاها لا تكفي إطاعة الله وحسب وإنما لم تكن قاضيا على أنانيتك وهوى نفسك بمجرد إطاعة أوامر الله، بل يجب أن تمتثل أوامر الإنسان الذي أمر الله بطاعته. وإطاعة من أمر الله بطاعته هي ما نسميها بالولاية بمعناها الخاص. الولاية هي المرحلة القصوى الدالة على طهارة الإنسان. الولاية هي تلك المرحلة التي عجز إبليس عن اجتيازها واتضح بعد ستة آلاف سنة أنه كافر كذاب ولم تنزل أنانيته مستفحلة في ذاته.

الولاية هي المحك الأخير لاختبار زوال أنانية الإنسان

تَرَدَّدَ على بيوت أهل البيت(ع) ولا سيما أمير المؤمنين(ع) وافحص قلبك وانظر هل تشعر بالتواضع الكبير تجاه عظمة أمير المؤمنين(ع) أم لا؟ إنك لم تكن قادرا على رفض عبوديتك لله، ولكن هل تعتقد بأفضلية أمير المؤمنين(ع) عليك أو أنك تحسده؟! وعندما تقف بين يدي أمير المؤمنين(ع) هل تخشع له وتتهافت أم يبقى لك شيء من الكبر والاستعلاء؟ إن كنت عبدا لله تقل: «إلهي! دلني على أحبائك وأعزائك لأكون خادما لهم». وهذا هو الفارق بين العبد الحقيقي والعبد المزيف. وهذا هو الفارق بين المسلم والمؤمن. الهدف الذي قدره الله لنا في هذه الدنيا هو أن نقضي على أنانيتنا عبر أوامره ونواهيه ونستعين على ذلك بالتقوى. ولابد أن نخضع لذلك لننسى بالعبودية ونتصف بالتقوى. ولكن في سبيل أن يتضح الأمر حقيقة وأن هل قد زالت أنانيتنا حقًا أم لا، لابد أن نخضع لامتحان الولاية. يجب أن لا يثقل عليك امتثال أمر من أوجب الله طاعته. لقد قال الله سبحانه وتعالى للنبي في القرآن: (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [النساء/65]

لماذا يغفر الله لأهل الولاية؟

إذا نجح امرء في امتحان الولاية، فقد أحرز عبوديته. فإنه إن عثر بزلّة أو ذنب يغفر الله له بسهولة. بينما إذا كان الإنسان قد عبد الله سنين طويلة وقام بأعمال حسنة كثيرة، ولكن لم يطو عقبة الولاية بنجاح فهو مريض، وحتى باقي أعماله الصالحة فهي خداع وقد قام بها لإسكات ضميره لا طاعةً لأمر مولاه. إن مثل هذا الإنسان في الواقع عابد لنفسه غاصّ في خيالاته وأوهامه. النزاع الرئيس في العالم قائم بين عبادة الله وعبادة النفس، وأقصى مراحل عبادة الله هي أن لا تمثل أوامر الله وحسب، بل تخضع للولي الذي يؤمّره عليك وتمثل أوامره. أحد أفضل عباد الله في زمن النبي(ص) سلمان الفارسي. فقد سئل الإمام الصادق(ع) عن سبب ما كان يكثر من ذكر سلمان الفارسي ومدحه، إذ قال له الراوي: «مَا أَكْثَرَ مَا أَسْمَعُ مِنْكَ يَا سَيِّدِي ذَكَرَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ! فَقَالَ: لَا تَقُلِ الْفَارِسِيَّ، وَ لَكِنْ قُلْ سَلْمَانَ الْمُحَمَّدِيَّ، أَ تَدْرِي مَا كَثُرَ ذِكْرِي لَهُ قُلْتُ: لَا. قَالَ: لِثَلَاثِ خِلَالٍ: أَحَدُهَا: إِثَارُهُ هَوَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عَلَى هَوَى نَفْسِهِ، وَ الثَّانِيَةُ: حُبُّهُ لِلْفُقَرَاءِ وَ اخْتِيَارُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَ الْعَدَدِ، وَ الثَّلَاثَةُ: حُبُّهُ لِلْعِلْمِ وَ الْعُلَمَاءِ. إِنَّ سَلْمَانَ كَانَ عَبْدًا صَالِحًا حَنِيفًا مُسْلِمًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». [أمالي الشيخ الطوسي / ص ١٣٣]

لعل ولاية الفقيه أيضا محل امتحان هوى نفس الإنسان

إن موضوع هوى النفس قد جرّنا من العبودية والتقوى إلى الولاية. فهل قد بقي شيء من هوى النفس بعد أم لا؟ كم لولاية الفقيه من علاقة مع ولاية علي بن أبي طالب(ع)؟ لعل ولاية الفقيه أيضا هي محل امتحان هوى نفس الإنسان. قد يسأل سائل وهل الولي الفقيه معصوم؟! فأقول له: وهل كان سلمان الفارسي معصوما؟! فإنك إن لم تتولّ سلمان الفارسي فقد خرجت من ولاية أهل البيت(ع). يقول الإمام الباقر(ع): «الْوَلَايَةُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَمْ يُغَيِّرُوا وَ لَمْ يُبَدِّلُوا بَعْدَ نَبِيِّهِمْ ص وَاجِبَةً مِثْلَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ وَ أَبِي ذَرٍّ الْغِفَارِيِّ وَ الْمُقَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيِّ وَ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ وَ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانَ وَ أَبِي الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ وَ سَهْلِ بْنِ حَنْبَلٍ وَ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ وَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ وَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَ خُزَيْمَةَ بْنَ ثَابِتِ ذِي الشَّهَادَتَيْنِ وَ أَبُو [أبي] سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ وَ مَنْ نَحَا نَحْوَهُمْ وَ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ» [خصال الصدوق ٦٠٧/٢]

فإذا قال قائل، أنا خادم المعصومين الأربعة عشر فقط، وأتواضع لهم فقط، فنقول له: إنك إن لم تتواضع لخدمة أهل البيت (ع) وتتجاسر على أحد خدامهم تخرج من ولاية أهل البيت (ع). فيجب عليك أن تتواضع لهم جميعاً. كان بإمكان الله أن يعطينا برنامج جهاد النفس مباشرة، أو يخاطبنا بالآيات القرآنية ليكون شأن النبي (ص) إيصال أوامر الله إلى الناس، ولكن أحياناً كان يخاطب النبي ويأمره بإبلاغ الناس فلم يتحدث مع الناس مباشرة. ومن جملة أهم مصاديق هذه الحالات هي واقعة الغدير؛ (أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ). وكلما دعا الله في القرآن إلى طاعته، أمر بإطاعة الرسول كذلك. مثل قوله تعالى: (أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ) أو ما نقله عن معظم أنبيائه الذين ذكر قصتهم في القرآن إذ قالوا لأقوامهم: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ). ولعلَّ الله قد تحدّث عن طاعته بلا أن يذكر طاعة الرسول في آية واحدة فقط. يقول أمير المؤمنين (ع): «وَ اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّكُمْ إِذَا اتَّقَيْتُمُ اللَّهَ وَ حَفِظْتُمْ نَبِيَّكُمْ فِي أَهْلِهِ فَقَدْ عَبَدْتُمُوهُ بِأَفْضَلِ عِبَادَتِهِ وَ ذَكَرْتُمُوهُ بِأَفْضَلِ مَا ذُكِرَ وَ شَكَرْتُمُوهُ بِأَفْضَلِ مَا شُكِرَ» [تحف العقول/ص ١٧٨]

كُلُّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَقْدٌ لَوْلِيِّ اللَّهِ، تَسَنَّى لَهُ أَنْ يَجْسِدَهُ فِي كَرْبَلَاءَ

ما حدث في كربلاء؟ أما في مخيم الأولياء، فكان قد جاء الإمام الحسين (ع) متيماً بحبِّ الله قائلاً: «تركت الخلق طرّاً في هواكا/ وأيتمت العيال لكي أراكا/ فإن قطعني في الحبِّ إربا/ لما مال الفؤاد إلى سواكا». وأما من كان في مخيم الأشقياء؟ لقد شاء الله أن يحدث أمران في كربلاء: ١- أن يجسد العشاق عشقهم ٢- أن تتاح الفرصة لكل من كان في قلبه كبر تجاه ولي الله أن يظهر ويجسد رذالته وقذارته. وفي كربلاء نحن نستطيع أن نرى مدى رذالة أولئك القوم الذين تكبروا على الولاية. وكلُّ من كان في قلبه حقد على ولي الله أتاحت له الفرصة أن يجسدها في كربلاء...

صلى الله عليك يا أبا عبد الله